الحداثة..

وأزمة البحث عن هوية ثقافية

أحمد مفلح ـ طرابلس ـ لبنان

في لقاء شعري دوري، يجمع نخبة من الشعراء والمثقفين والجامعيين، دار نقاش حول الشعر العربي الحديث مقارنة مع الشعر العربي المبني على أساس الوزن والتفعيلة.. وصل الحديث إلى قضية الحداثة في الثقافة العربية وما بعد الحداثة، وانقسم الحضور بين مدافع عن الحداثة، ومعارض لها، الفريق الأول يرى أن الحداثة والشعر الحديث هو الطاغي اليوم، نظراً إلى ما وصلت إليه الاكتشافات العلمية وتطور البشرية والتغييرات الاجتماعية التي حصلت وتحصل، ولا بد من مواكبة هذا الجديد، فها هي أوروبا والغرب المتقدم يتبع هذا المذهب أو ذاك، وعلينا التأقلم معهم للخروج من "محنتنا". أما الفريق الآخر فاعتبر أن ما يهب على الوطن العربي والأمّة الإسلامية اليوم من مذاهب وأفكار ما هي إلا مؤامرة على الإسلام وثقافتنا الإسلامية وديننا ولغتنا التي هي لغة الإسلام، وبالتالي علينا محاربته والعودة إلى تراثنا وأصولنا، ومنها الشعر العربي الموزون والمقفى.

انتهت الجلسة بعد أن داهمنا الوقت، ولم نصل إلى رؤية موحدة حول هذا الموضوع، وليس من السهل طبعاً الوصول إلى نتيجة معينة فيه لأنه يقسم الآراء المثقفة منذ الحملة الفرنسية على مصر، وتحديداً وبشكل أكثر بروزاً منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث كتب الكثير حول هذا الموضوع، وتحديداً حول العلاقة مع الغرب وتقليده والحذو حذوه من أجل التقدم والخلاص من حالة الوهن والضعف التي تعيشها الأمة العربية والإسلامية، ومجموع ما كتب كان متطرفاً تقريباً، حيث طالب البعض بالتنكر للتراث العربي الإسلامي، باعتباره هو سبب هذا التخلف!! ووجد البعض الآخر أن الغرب هو سبب الأزمة، ولكن لم يضع أحد رؤية لكيفية التعامل مع مقولة "التراث" و"الحداثة"، وإن كانت هناك بعض الآراء التوفيقية ولكنها تعتبر توفيقية بشكل آلي، أي أنها أخذ ما يناسب من هنا.. وما يناسب من هناك، ولكن دون دراسة واستيعاب وتطوير "للتراث" وهضم "للحداثة".

السؤال الذي كان مطروحاً في تلك الجلسة الأدبية هو: "هل الحداثة الغربية التي يتبناها البعض اليوم تتلاءم فعلاً مع هويتنا الثقافية العربية والإسلامية؟ وهل التراث كما هو قادر على استيعاب ومواكبة الاكتشافات والتطور العلمي والثقافي؟"، هذه هي الإشكالية الأساس التي يجري البحث عن أجوبة لها، وهنا تقع أزمة الهوية الثقافية العربية تحديداً حيث الانفصام الذي نقع به بين تقليد مذاهب ونظريات ولدت في ظروف غير ظروفنا البيئية والاجتماعية والتاريخية والدينية والنفسية والسياسية وحتى اللغوية والثقافية والعقلية. فالحداثة والمعاصرة،

أو ما بعد الحداثة، وكل ما تفرع منها من مذاهب ونظريات فلسفية ومناهج في الغرب، لم تولد فجأة، أو لأن هذا المفكر أو ذاك أراد هذا التغيير، بل هي نتيجة تراكمات وتطورات وتغييرات وتبدلات طويلة وثورات اجتماعية وصناعية ودينية، حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من أفكار ومناهج، فهل يعقل أن نقتبس تجربتهم هكذا ونسقطها في مجتمعنا وواقعنا؟ فنكون كمن يزرع جسماً غريباً في جسم آخر. فما لم تتفجر القوة التغييرية من كبد الواقع العربي والإسلامي وفي قلب العالم الثالث، لن تكون عملية التغيير مجدية، بل سرعان ما ستذبل وتموت، وربما أدّت إلى ردة عكسية، خصوصاً إذا تبين أنها لن تجدي نفعاً.

ونذكر في هذا المجال أن التغيير والتطور هو حالة تاريخية خاضعة لمسارات زمنية طويلة وليست وليدة حاجة أو رؤية آنية، ففي واقعنا العربي، الحاكم هو الذي يغيّر، كأن يستهويه منهج معين فيطبقه ويفرضه على البشر من دون رأي لهم به أو علم ومعرفة. وفي كثير من المرات تأتي هذه التغيرات في وجه معين، أو قطاع محدد، فمحمد علي باشا أعجب بالتقدم والتطور والعلم عند الفرنسيين، فأراد تقليدهم وتنظيم الدولة على طريقتهم، فأرسل بعض البعثات العلمية، ولكنه ركز في النهاية على قطاع واحد هو القطاع العسكري، ولم يعمل على الاستنهاض بالمجتمع كله، فالتغيير يشمل القطاعات كلها معاً، ولا يمكن القول إننا نريد تحديث هذا الجانب أولاً، ونترك الجوانب الأخرى، فكانت النتيجة سقوط محمد علي وإن ترك بعض الآثار. والتجربة نفسها تكررت مع بداية القرن العشرين عندما كانت الآراء كلها تشير إلى ضرورة الأخذ بالنموذج الأوروبي، حيث وقع العرب بالانبهار بمنجزات العقل الغربي المسيطر آنذاك والمستعمر لهم، فأرادوا التماثل به وتقليده، وراحت بعض الدول العربية، وتحديداً مصر بعد خروج الاستعمار البريطاني، تعمل على "التحديث"، وكان هذا التحديث يشمل فقط بعض القطاعات الصناعية والعسكرية، دون تحديث وارتقاء العقلية العربية.

ومرة أخرى عاش العرب إحباطهم المطلق من الماضي والحاضر والمستقبل، ومصدر هذا الإحباط هو أننا أدرنا ظهورنا لتراثنا وثقافتنا العربية ــ الإسلامية.. وارتمينا بالكامل في الحضارة الغربية ونقلنا تجربتها دون أن ننتقي ما يناسبنا من علوم وتكنولوجيا، كالتجربة اليابانية، وللمناسبة لا هوية وطنية أو سياسية للعلم والتكنولوجيا، فهي للجميع شرط أن نعيها ونتعرف إليها ونوظفها، ولكننا مرة أخرى ربطنا بين الحداثة والتحديث وقاطعنا المعرفة التراثية خاصتنا، فاحتقرنا العقل العربي، ونفضنا أيدينا من الثقافة العربية ــ الإسلامية، وقلـّدنا ثقافة الآخر.. وعندما وقعنا في الهزيمة واليأس عدنا نبحث عن هويتنا الثقافية فلم نجدها، بل وجدنا بعض القشور الخارجية، فتمسكنا بها وتركنا الجوهر. تماماً كما أخذنا من الحداثة الغربية ما هو منبوذ عند الغرب، وتركنا تجربتهم العقلية، وتغاضينا عن الإنتاج وركضنا وراء الاستهلاك، وقبلنا بدسائس قتلت ثقافتنا ولبسنا ثوب غيرنا، وقلبنا تاريخنا المعز إلى دونية، وحسبنا أن هذه الحداثة ستخلصنا من قهرنا وإذا بها تخضعنا وتزيد في قهرنا خدمة لمصالحها.

مقابل هذا الإحباط واليأس، عدنا إلى التراث، عودة التائب، فتمسكنا بمظاهر الأمور، وأسقطنا مرة أخرى عامل الزمن من حساباتنا، فكأن التاريخ توقف عند فترة معينة، وبعض الإنجازات التاريخية والثقافية والسياسية والتضحيات والتغيرات في العلاقات الدولية

والاكتشافات العلمية والاختراعات.. كل هذا أسقطناه بلحظة إحباط ويأس. إذ أننا لم نقرأ التاريخ ولا هذا التراث نفسه، غير مكترثين إلا بالخروج النفسي من حالة الإحباط التي ولدت أساساً من حالة فقدان الهوية، وإذا بنا مرة أخرى نقطع هذه المسافة الزمنية والموضوعية، ولكن إلى الوراء هذه المرة، فضيعنا ثقافتنا وهويتنا بالغرق في تفاصيل ماضية تافهة أحياناً، فلم نقرأ المنهج العقلي عند العرب والمسلمين، ولم نقرأ قيم الحرية والعدالة والمنهج العلمي والتسامح والمحبة والحكمة والعيش المشترك وحقوق المرأة وغيرها من القيم الإسلامية.

والسؤال، أين نجد هويتنا الثقافية؟ هل هي في تبني وتقليد الآخر الغريب عن واقعنا؟ هذا مع العلم أن تلاقح الحضارات وتثاقفها والتأثر بها أمر طبيعي ولنا به في تاريخنا الإسلامي تجربة طويلة عندما كانت حركة الترجمة عن اليونانية والفارسية ناشطة.. ولكن مع الالتفات إلى أن هذه الترجمة لم تكن لإزاحة هويتنا وتنزيلها مكانها، بل كانت تلبس ثوب الحضارة العربية ــ الإسلامية، وكان يعمل على مواءمتها وملاقحتها مع الواقع والعقل العربي ــ الإسلامي، فهذه الآراء والأفكار كانت ترضخ للأساس الثقافي الموجود، والعودة إلى التراث اليوم يجب أن تقرأ وتبحث وتستوعب للاعتزاز بما مضى والاستفادة منه والانطلاق بما هو صالح لعصرنا، ويمكن عصرنته، وهنا سنجد هويتنا الثقافية والاجتماعية، ومن هنا نجد أنفسنا، فنعرف الآخر ويعرفنا.